
مرايا التراث
العدد الحادي عشر – خريف ٢٠١٩/ شتاء ٢٠٢٠

البطريرك الحويك
مستقبلاً الجنرال غورو في الديمان

«بعد اعتراف فرنسا بضرورة استقلالنا سنة ١٨٦٠ لن أرضى بعد ستين سنة أن يُمَسّ ويَحكُمَنا الغير»

بين الوثائق النادرة في كتاب الخوري أسطفان ابرهيم الخوري «رسائل البطريرك الياس الحويِّك السياسية»: الوثيقة ١٧٢ – الملفّ ٤٣، وفيها نصُّ الخطاب الذي أَلقاه البطريرك الحويك في الديمان صبيحةَ استقبال الجنرال غورو في احتفال حاشد، وما قاله غورو متأثِّرًا بخطاب البطريرك.

وهذا النص أَخذه الخوري أسطفان عن جريدة «المحاكم»[1] عددها الإثنين ٥ كانون الأَوَّل ١٩٢١. ننقُلُه حرفيًّا كما صدر في الجريدة.

خطاب غبطة السيد العلّامة بطريرك الطائفة المارونية مار بطرس الياس الحويك الكليّ الطوبى رعاه الله بعينه الصَّمَدانية.

زار جنابُ الجنرال غورو، المرخَّص السامي للجمهورية الفرنساوية الفخيمة في لبنان الكبير وفي سوريا، غبطةَ السيد البطريرك الكليّ الطوبى والقداسة في أواخر سبتمبر الماضي، في مقرِّه الصيفي بالديمان من أعمال لبنان، فواجَهَه بالخطاب الآتي مُعْرِبًا فيه لجنابه عن أماني أبناء لبنان وتَمَسُّكهم باستقلال بلادهم. وهذا نصّه:

١) أَنشأَها في مصر يوسف آصاف، المعروفُ بـ«عزتلو يوسف بك آصاف». وهو يوسف بن همام آصاف، كاتب ومؤرِّخ لبناني، وِلد سنة ١٨٥٩، درَسَ العربية والإيطالية ومبادئَ العلوم في مدرسة مار عبدا التي أنشأَتْها عائلتُه في لبنان. زاول التدريس في عكّا، وأتقن الفرنسية. سافر إلى إيطاليا وتركيا، واستقرَّ في مصر فعمِل مترجمًا، واشترى مطبعة المحروسة وجريدتَهَا عام ١٨٧٦ (أنشأها الياس زيادة والد الأديبةَ مي زيادة)، وأنشأَ المطبعة العمومية في القاهرة سنة ١٨٨٨. درَس الحقوق وتَخَرَّجَ سنة ١٨٩٠ فأصبح محاميًّا لدى المحاكم الأهلية، وأَنشأَ جريدة «المَحاكم». توفي سنة ١٩٣٨تاركًا مجموعةَ مصنَّفاتٍ تاريخية وقانونية («مرايا التراث»).

المحاكم

EL MAHAKEM

السنة الثانية والثلاثون

صدر في يوم الاثنين ٥ ديسمبر سنة ١٩٢١ الموافق ٦ ربيع الثاني سنة ١٣٤٠

مندرجات الجريدة

«يا حضرة الجنرال، إنك تعلم قدْر سرورنا بزيارتكم فلَسْنا، والحالة هذه، بحاجة إلى البيان، فأنت دائمًا بيننا على الرحب والسعة.

إنّ ما لنا فيكَ من الثقة يُبيح لنا أن نصارحك ببعض أمورٍ تهم البلاد. كنت منذ سِنين خلت مارًّا في القطر المصري، فقابلتُ في القاهرة حضرة معتمَد فرنسا. وقد دار بيننا الحديثُ على العدل والمحاكم في مختلف الأمصار، فقال المعتمد إن ٩٥ في المئة من مَحاكم فرنسا تقضي بالعدل الصحيح، والباقي تحت الشك واليقين. فقلت له إن ٩٥ ٪ من محاكم الدولة لا تقضي بالعدل، والباقي ما بين الشك واليقين. فنحن اليوم، ياحضرة الجنرال، نريد أن نأمل، بفضل المساعدة التي تأتون بها، أن الأمور ستتعدَّل فيصبح ٩٥٪ من محاكمنا على ما نوَدُّ من القضاء والعدل بين الناس.

إنك قد أعلنتَ، يا حضرة الجنرال، استقلالَ لبنان بحدوده الطبيعية، وأنت تدري كم كان فرحُنا شديدًا وامتنانُنا عظيمًا. غير أن بوادر الأحوال تدلّ من مدة على أن هناك أخطارًا تهدِّد ذلك الاستقلال. ففي البلاد لغطٌ وهمسٌ حول الوحدة السورية أو الاتحاد مع سوريا.

لا تُصدِّق المُطالبين بالاتحاد مع سوريا

إنك تعلم يا حضرة الجنرال أن اللبنانيين لا يريدون هذا ولا يرضَون به {تصفيق}. فأنا يوم سافرت إلى باريس حملتُ إليها الوكالات ممضاة من كل طوائف لبنان، باسم اللبنانيين قاطبة، وطالبتُ هنالك باستقلال البلاد وبالحدود الطبيعية. وأنت تعلمُ أن في أحاديثي مع المسيو كليمنصو وفي الكتاب الذي أرسلَه إليّ تصرِّح رسميًّا، وبطريقة لا تترك مجالاً للشك، أنَّ استقلالَنا لا يقبل الجدَل، وأن لبنان يتمتَّع باستقلاله التام عن كل حكومة مجاورة {تصفيق}.

فإذا كان جاءكم قوم مفسدون، وقالوا لك إن اللبنانيين قد رجعوا عن رأيهم، فلا تصدِّق ما يقولون. أنا أنطق بلسان اللبنانيين على بكرة أبيهم، فأقول لك إن اللبنانيين لأشد تشبُّثًا اليوم بالاستقلال منهم في كلّ زمان مضى {تصفيق حاد}. ولئن كان عندكَ أقلّ شكٍّ فى الأمر، فأنا باستطاعتى فى أربع وعشرين ساعة أن آتيك بالبلاد كلِّها شهادةً وتأمينًا {تصفيق حاد متواصل وهتاف استحسان}.

هذا وإن لبنان لم يرضخْ يومًا من الأيام لحُكم أجنبي. إن جدودَنا وآباءَنا ما ارتضوا بهذه الجبال الجرداء ينزلونها معتصمين، إلاّ وهمُّهم الوحيد حمايةُ حريتهم وحقوقهم فلا تصل إليها وإليهم يدُ الغزاة الفاتحين {تصفيق حاد متواصل وهتاف استحسان}.

منذ ١٨٦٠ تعمل فرنسا على استقلال لبنان وحكومته الوطنية

إن فرنسا ذاتها سنة ١٨٦٠ كانت تريد أن تحقِّق لنا الاستقلالَ التامَّ والحكومةَ الوطنية البحتة على رأسها حاكم وطني لبناني. وأنا اطّلعتُ بنفسي على برقيةٍ أرسلها وزير خارجية فرنسا يومئذٍ إلى سفيره في الأستانة يقول فيها: «أطلب أن يكون حاكمُ لبنانٍ وطنيًا. دافِعْ عن هذا المبدأ حتى النهاية، ولا تتحوَّلْ عنه إلاّ إذا رأيتَ أنه سيتحتَّم القبول بِحَلٍّ للإشكال. وفي هذه الحال لا ترضَ بأيِّ حالٍ كان إلاّ إذا ضمِنتَ رسميًا أن الوطنيين لا يكونون محرومين في المستقبل من تَقَلُّد منصب الحاكم العام».

هذا ما كانت ترمي إليه فرنسا سنة ١٨٦٠، فلا يُعقَل أن نرجعَ إلى الوراء بعد مضيّ ستين سنة ونرضى بأن يَحْكمنا الغير {تصفيق شديد}. فمنْعًا لمثل ذلك سافرتُ، كما تَعلَم، من سنتَين. واليوم، إذا كان استقلال لبنان في خطر فأنا، رغم شيخوختي، بل رغم ما تكبدْتُه من المشاقّ وعانيتُه من التعب في السفرة الأخيرة، أنا أركب البحر بلا إهمال فأذهب إلى باريس ولن أعود منها إلاّ وفي يدي عهدٌ خطيٌّ رسمي أن الاستقلال أمر نهائي ثابت لا رجوع فيه. {تصفيق حاد وهتاف استحسان شديد متواصل}.

وأنا أرى أنهم في أوروبا يتكلَّمون كثيرًا عن سوريا ولا يَذكرون لبنان. فنحن نريد أن تعترف الدُوَل باستقلال لبنان كما اعترفَت به فرنسا، بل نطلب أن تُقِرَّه وتعتمدَه جمعية الأمم {تصفيق وتأمين}.

يا حضرة الجنرال، نحن نثِق بك، ونثِق بفرنسا، لكنْ يجب أن لا تُمَدَّ يدٌ إلى استقلال لبنان. وإذا مُسَّ يومًا، فأنا أؤكد لكم أن البلاد تَهُبُّ بل تشتعل على مسِّه احتجاجًا» {تصفيق وهتاف}.

غورو: «أنت وكيلُ الأمة اللبنانية أيها السيِّدُ الجليل».

فلم يتمالك فخامة الجنرال عندئذ من إظهار علائم الدهش والانفعال، فوقف غير مُخْفٍ تأثُّره، وقال إنه لا يرى ما يحمل غبطته على الخوف من اعتداء يصل إلى استقلال لبنان. ثم سرد الأعمال التي تشهَد بحِبه للبنان وغيرته عليه. واجتهد أن يطمْئن غبطة البطريرك ومَنْ حوله مكرِّرًا عهد فرنسا باحترام استقلال لبنان وتنفيذه.

وبعد أن تكلَّم هذا النمط حوالي الخمس عشرة دقيقة، أنهى كلامه بقوله:

– أكبر برهان على أننا محافظون على وعودنا، هو وجودي الآن على مائدتك، أيها السيد الجليل، وأنت وكيل الأمة اللبنانية. أكرر لك عهدَنا للبنان، شاربًا نخبك ونخب لبنان الكبير.

ثم قام الجميع إلى القاعة حيث جلَس غبطته والجنرال مواصلينَ الحديث أكثر من ساعة. وبعدها ذهبَ كلٌّ إلى غرفته، فبات الجنرال ومن معه في ضيافة البطريرك. وفي صباح اليوم التالي اختلى بغبطته ساعةً من الزمن، جدَّد له فيها الوعود والعهود. وعلى أثر ذلك غادر الجنرال الديمان مودِّعًا غبطته في الإجلال وتمام المودة.

الحويك لم يتكلَّم باسم طائفته فقط بل باسْم جميع اللبنانيين[1]

هذه خلاصة ما دار في مقابلة الديمان التي كثُرَ التحدث فيها.

وإذا كان اللبنانيون قد قابلوا بمزيد الإعجاب تلك النُّتَف التي كانت قد ترامت إليهم من ذلك الخطاب، فإنهم اليوم يصفِّقون طرَبًا للوقفة الوطنية التي وقفَها غبطة البطريرك الكبير. فبمثل هذه المواقف تُكتَسَب الزعامة، وبمثل تلك اللهجة الصادقة تُستمال قلوب الأحرار مجاهدين في سبيل حرية بلادهم واستقلالها.

ففي الديمان لم يتكلَّم غبطة البطريرك الماروني باسم أبناء طائفته، بل تكلَّم باسم أبناء لبنان كافة مُسلمهم ودرزيِّهم ومسيحيِّهم. ولقد صدق في قوله إن البلاد تهبّ، بل تشتعل احتجاجًا على مس الاستقلال، إذا مُدَّت إليه يد. بل إن هذه الصراحة في القول تُعَدّ أجلّ خدمة تُسدى للدولة التي تولَّت إدارة لبنان، وتَقيها التعثُّر في سياسة لا يُقرها الوطنيون عليها. فالمهاجرون اليوم يطالبون مع غبطة البطريرك إصلاح المحاكم لإقامة العدل بين الناس، وهم يحتجُّون على مشروع المحاكم المختلطة كل احتجاج، لأنه إذا كان الفرض منها ضمان العدل للأجانب، فالأحرى بأُولي الأمر أن لا يَتركوا أبناء البلاد بين براثن الظُّلم، بل يصلحوا المحاكم الأهلية لتَضْمن العدل للجميع على السواء.

وهم يطلبون إصلاحَ نظامِ النقد المختلّ الذي قد يُلحِق بالبلاد أشدَّ الكوارث الإقتصادية، ووضعَ نظامٍ للبنك السوري ونقْده الورقي لتُصان مصالح البلاد.

هم يطلبون الخلاص من الحُكْم العسكري بإقامة حكومة وطنية نيابية، وإنشاء مجلس للمديريين يكون مسؤولاً بالتضامن أمام مجلس النواب.

هم يطلبون سيادة لبنان على جميع موارده، فيكون عمَّالُه المختصون مسؤولين عن الدخل والخرج، فلا يبقى كل ذلك في أيدي رجال المفوضية يتصرفون فيه بطرق عُرفية.

وصفوة القول: هُم يطالبون بإنفاذ الاستقلال الذي أعلنه الجنرال غورو إنفاذًا صحيحًا كاملاً لا يعتَورُه استثناء، ولا يشوبه تقييد. فإذا نالوا ما يطلبون – وحقُّهم في طلبهم صريح – تكون الأمة الفرنساوية الكريمة قد عملَت بتقاليدها الحرة المعروفة، بل أنقذت في لبنان ذلك الاستقلال الفعلي الذي أرادتْه له هي نفسها في سنة ١٨٦٠. وهكذا تُكتَسب صداقةُ شعب نشيط يؤيِّد نفوذَها في الشرق، بل في سائر أنحاء المعمور، لأن أبناءه ضربوا في الأرض شرقًا وغربًا. فإذا كنا نُحيِّي اليوم، في غبطة السيد البطريرك، الوطنية الصادقة، فإننا نرجو أن يرتفع صوتُه عاليًا في جميع الشؤون التي سردنَاها، فإنه الصوتُ المسموعُ المُجاب.

[1] العناوين الجانبية، تسهيلاً، من وضْع «مرايا التراث» وليست في النص الأصلي.